يعشنْ كثيرٌ منَ النساءِ أسيراتِ قراراتٍ لمْ يخترنْها، في مجتمعٍ تحكمُهُ التقاليدُ وتُقيدُهُ العاداتُ ...

بينَ قسوةِ الحربِ وأقبيةِ النزوحِ، فوجدتْ أسيلُ نفسها في حلقةٍ مغلقةٍ لا تكسرُها إلا معجزةٌ، إذ بدأتْ قصتُها منْ مكانٍ يمزقُهُ النزاعُ الأسريُّ، متحملةً حجمَ القسوةِ والمعاناةِ في سبيلِ بقائِها مع أطفالِها فقطْ.

قسوة بلا رحمة

يعشنْ كثيرٌ منَ النساءِ أسيراتِ قراراتٍ لمْ يخترنْها، في مجتمعٍ تحكمُهُ التقاليدُ وتُقيدُهُ العاداتُ داخلَ دوامةٍ منَ العنفِ والصمتِ المفروضِ بينَ قسوةِ الحربِ وأقبيةِ النزوحِ، فوجدتْ أسيلُ نفسها في حلقةٍ مغلقةٍ لا تكسرُها إلا معجزةٌ، إذ بدأتْ قصتُها منْ مكانٍ يمزقُهُ النزاعُ الأسريُّ، متحملةً حجمَ القسوةِ والمعاناةِ في سبيلِ بقائِها مع أطفالِها فقطْ.

جلستْ أسيلُ (٤٧ عامًا)، وفي عينيها قصصًا من الألمِ والتحديِّ، فهي أمٌّ لأربعة عشرَ فردًا أكبرُهم يبلغُ ٢٧ عامًا وأصغرُهم ١٣ عامًا، متزوجةٌ منذ ٣٠ عامًا، وكانت تقيمُ في حيِّ الشجاعيةِ شرقَ مدينةِ غزةَ قبل حربِ أكتوبرَ، ولم يكن زواجُها خيارَها؛ فقد فُرضَ عليها في زمنٍ كانت فيه الكلمةُ الأولى والأخيرةُ للعائلةِ، لتجدَ نفسها لاحقًا في علاقةٍ مثقلةٍ بالعنفِ والصراعِ.

لم يكن الزواجُ رحلةً هادئةً بالنسبةِ لها؛ فمنذ البداياتِ واجهتْ عنفًا جسديًّا ونفسيًّا مارسهُ زوجُها الذي سعى للسيطرةِ عليها بكلِّ الطرقِ، مدفوعًا غالبًا بتحريضٍ من والدتِه، فقد كانت تعيشُ في جزءٍ من منزلِ العائلةِ، حيث تُقسَّمُ الأدوارُ وتتوزعُ الواجباتُ، لكنها كانت تدفعُ الثمنَ الأكبرَ، "إذا قصّرتْ في خدمةِ والدتِه كانت تحرضُه ليضربَني، وكان يفعلُ دون ترددٍ" وفق قولِها.

ومع كلِّ ألمٍ كانت تختارُ الصمتَ، ليس ضعفًا، بل خوفًا على أبنائِها ورغبةً في تربيتِهم في كنفِ أبيهم، حتى لا تُحمّلهم تبعاتِ قرارِ الرحيلِ، لكن الحربُ الإسرائيليةُ في السابعِ من أكتوبرَ ٢٠٢٣ قلبت موازينَ حياتِها رأسًا على عقبٍ، فمع الضغوطِ الاقتصاديةِ المتزايدةِ اشتدَّ العنفُ، وتفاقمَ الغضبُ داخلَ زوجِها، وارتفعَ صوتهُ ويدهُ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، حتى باتتِ الإهاناتُ والضربُ مشهدًا يوميًا أمامَ أبنائِها دون اكتراثٍ أو خجلٍ، ولا يحزنهُ نظراتُها المتوسلةُ بألا يفعلَ.

عندما تتذكرُ بدايةَ زواجِها، تشعرُ بالحنينِ إلى أيامٍ كانت فيها أحلامُها لا تزالُ حيةً، لكنها سرعان ما تنزعجُ من ذكرياتِ العنفِ والشتائمِ، وقالتْ أسيلُ: "حتى أبسطَ الطلباتِ، مثل الحصولِ على حبةٍ بندورةٍ، يتحولُ إلى مشادةٍ، وكأنني أطلبُ المستحيلَ، كلُّ شيءٍ يتفاقمُ، من كلماتٍ جارحةٍ إلى اعتداءٍ جسديٍّ، ولم أعدْ أعرفُ كيف أواجهُ ذلكَ".

وأضافتْ: "كنتُ أحاولُ تفاديه دائمًا حتى لا أتعرضَ للضربِ، أمام أولادي الذين لم يعودوا صغارًا، حيث أصبحوا يدركونَ كلَّ شيءٍ يدورُ حولَهُم".

لم تكن قوتُها الجسديةُ وحدها تُستنزفُ؛ فأسيلُ تعاني من سرطانِ الثديِّ، وتحتاجُ إلى علاجٍ منتظمٍ ورعايةٍ نفسيةٍ، لكن زوجُها لم يكترثْ لمرضِها، بل ازدادَ سوءًا تجاهَها، وخلال مرحلةِ النزوحِ المتكررةِ خلال الحربِ، كانت وابنُها الأكبرُ يحملان أثقالَ الخيامِ والأمتعةِ وحدَهُما، بينما يقفُ زوجُها متفرجًا يطلبُ الشايَ والقهوةَ ببرودٍ ولامبالاةٍ، وقالتْ: "كنا ننصبُ الخيمةَ، وهو يطلبُ مني الشايَ أو القهوةَ حتى يشربَ مع سيجارتِه، وإن رفضتْ ينهالُ عليّ بالشتائمِ".

ورغم إنهاكِها كانت تلبي طلباتِه، لا رغبةً في الرضا بل تجنبًا للفضائحِ التي يصرُّ على افتعالِها أمامَ الناسِ، حتى وإن كان ذلك على حسابِ كرامتِها.

ولم تتوقف معاناتُها عند حدودِ البيتِ؛ فالعنفُ الذي تواجهُه فاقمه الاحتلالُ الإسرائيليُّ بحرمانِ مرضى السرطانِ من دخولِ أدويتِهم، مما جعلهم يبحثون عن بدائلَ تساعدُهم على تخطي حالتِهم الصحيةِ، وهو ما ضاعفَ تدهورَ حالِها، وجعلها في صراعٍ يوميٍّ مع الألمِ، وكانت تحمل كذلك همَّ ابنتِها المنفصلةِ حديثًا، والتي ترفضُ الزواجَ مجددًا خوفًا من أن تواجهَ مصيرًا يشبهُ مصيرَ والدتِها، تقول عبارتَها التي تمزق القلبَ: "أتزوجُ علشان يطلعَ زي أبوي؟ يضربني بسببٍ وبلا سببٍ؟ لا هيك أحسنُ لي".

لم تتوجهْ أسيلُ إلى أيِّ مؤسسةٍ للحصولِ على دعمٍ نفسيٍّ، فقد كانت منشغلةً بمحاولة تأمينِ علاجِها وسط الحربِ، تارةً تحصلُ عليه بصعوبةٍ، وتارةً أخرى لا تستطيعُ، ومع ذلك ظل في داخلِها خيطٌ رفيعٌ من الأملِ، ظهر في لحظةٍ إنسانيةٍ حين وجدَها صديقُ ابنِها مرهقةً في الطريقِ فسارع لمساعدتِها، لتشعر بأن الخيرَ ما زالَ موجودًا مهما تكاثفت القسوةُ حولَها، وتبحث عن دعمٍ من العائلةِ والأصدقاءِ.

حكايتها ليست مجردَ سردٍ لمأساةِ امرأةٍ تواجهُ العنفَ؛ إنها صورةٌ مكثفةٌ عن امرأةٍ صامدةٍ تصارعُ واقعين قاسيين: واقعَ العائلةِ وظلمَها، وواقعَ الاحتلالِ وقهرِه، ورغم المرضِ والخوفِ والضغطِ النفسيِّ، ما زالت تتمسكُ بالأملِ وتقاتلُ من أجلِ أبنائِها ومن أجلِ يومٍ تعيشُه بكرامةٍ، قصةٌ تُشبه غزةَ نفسها مُنهكةً، لكنها لا تستسلمُ.